الهدف الديني للاستشراق من دراسة التراث الإسلامي

من وجهة نظر محمد البهي ومحمد ياسين عربي

YUSUF MUSA ALI ABDULLAH ABU ALIQAH, ABDULL RAHMAN MAHMOOD, MOHD NASIR OMAR & IDRIS ZAKARIA

ABSTRACT

The Religious Objective of Orientalism in Studying Islamic Literature according to Muhammad al-Bahi and Muhammad Yasin Arabi

The West follows a number of methods and targets to destroy the Islamic world and to impose its culture on the reality of the Arab Islamists. Whether it is forcibly by direct colonialism, orientalism or by national elite, which is taught in the West and inspired by its exemplar and returns to its loyal carrier. It fights and contests the authenticity of Islam and its concept. Building upon it is also the research problem lying in the incitement towards the aggressive curriculum accompanied by the colonial schools in orientalism, which has put itself in the holistic civilization draft, but it comes by the central European framework which is based on the principle of eligibility and approval of Europeans only in urbanization and progress. Denying this vulnerability on others, so comes about the importance of research, as a renewal and stereotyping for many topics which develops the knowledge in the distinguished and the importance upon the education, culture, and ideology curricula in the Islamic world. As for the goal; it is possible to master a generation of researchers who moved out the wrong citizens, counterfeiting and fraud which takes place in orientalism, intentionally or un-intentionally because in its defamation is the foundations and principles of Islamic thought, their compliance to the curricula is offensive towards the Islamic ideology and it is not possible to apply it onto Islamic principles.

Keywords: orientalism, Islamic thought, Muslim thinkers.

إن الواقع الفكريّ والعقائديّ للأمة الإسلامية يؤكد أنها في حاجة ماسة إلي حركة إحياء شاملة، وتصحيح لما فسد من عقائد وتقويم ما اعوج من سلوكها. ولابد لهذه الأمة وهي في طريقها للتغيير من مواجهة مؤامرة الاحتواء التي تمارسها الأنظمة العلمانية بطرق التمييع والالتواء وعبر لغة الحوار والملائمة والتي يتم عن طريقها تحويل الإسلام الواحد إلى دويلات متعددة متفرقة متناحرة، ومزجه بالأفكار التغريبية من علمانية وقوميه ووطنيه، لاحتواء أبنائها والسيطرة على عقولهم من خلال الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة، وإبطال فريضة الجهاد ،وإثارة الشبهات حول القرآن الكريم ،والقول بتأثر الثقافة الإسلامية بالعقلية الإغريقية والفارسية. وهم في سبيل ذلك يعملون على انتزاع نصوص معينة من سياق المصادر لتأييد وجهة نظرهم في أقناع غيرهم بإثارة التناقضات بين النصوص والمصادر.

فقد أثار الاستشراق دعوات مسمومة للتشكيك في الإسلام والطعن في مبادئه وتشويه حضارته والتقليل من شأن الشعوب الإسلامية ،ووصفهم بأنهم أقل قدرة من الجنس الأبيض الأوربي في مجال السياسة والمدنـــــــــــــية والعلم والفن. فالأمة الإسلامية لا تزال ترى أن الإسلام هو المنهج الذي يمثل خصائصها،ويحدد هويتها، ويرسم الطريق

الأمثل إلى أهدافها الحضارية.فإذا ما تتبعنا تاريخ الاستعمار لبلاد الإسلام نجد أن أول استعمار غربي كان له خطره وأثره الحضاري على العالم الإسلامي، يبدأ بحملة نابليون بونابرت، على مصر عام ١٧٩٧م حتى عام ١٨٠١م ، وذلك لما لهذه الحملة من أثر كبير في تكوين عقليات بعض المسلمين، الذين أصيبوا بالانبهار والإعجاب بمظاهر ما يسمى بالمدنـــــــــية والتقدم العلمي، الذي وصل إليه الغرب وفرنسا بالذات. فقد جهز نابليون حملته بفريق من العلماء والباحثين في سائر التخصصات العلمية، منها مجموعة من المستشرقين المتخصصين بالدراسات الشرقية والإسلامية. وقد ركز المحتلون الغربيون، أثناء إقامتهم في العالم الإسلامي، على تشجيع التبشير، وتربية جيل من أبناء المسلمين على الفكر والسلوك الغربي وعزله عن عقيدته وتاريخه وأمته، ثم اصطفاء نخبة من هؤلاء ليصنعهم الغرب على عينه، وبعد أن أفلح في اختيار عملائه وصنائعه من النخبة الوطنية التي أشربت في قلوبها ثقافة الاستعمار، وتربت على يديه، ونشأت في كنفه ورعايته. ولاهم مقاليد البلاد بعد خروجه منها،لعرض أفكاره ونظرياته وفلسفاته الغربية الهدامة ،كالشيوعية، والوجودية، والقومية، والوطنية، والإباحية ، وإلغاء العمل بالشريعة الإسلامية.

ولقد تبين من الدراسات الواعية المتعددة مدى خطر الاستشراق في طرح أفكاره ونظرياته وفلسفاته داخل العالم الإسلامي ؛ولا ريب أن الاستشراق يعمل على إيجاد حصيلة واسعة من مفاهيم الإسلام بدأها بترجمة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والهدف هو إحكام الرد على ما في هذه من قضايا معارضة للمسيحية من ناحية أو معارضة للنفوذ الأجنبي من ناحية أخرى. فالمستشرقون يدرسون قضايا الإسلام – لغته وتاريخه وشريعته وتراثه– بروح غير علمية، تقوم إما على سوء الفهم أو سوء النية، وهم لا يتصورون أي شيء إلا في حدود مفاهيمهم المسيحية وعقليتهم الغربية التي تعودت على ربط الظواهر الإنسانية بالجنس واللغة القومية والبيئة في حدود المفهوم المادي القائم على المحسوس. ومن هنا كان الإنسان عندهم ظاهرة قومية نشأت عن ظروف اقتصادية ومن شأن هذا التصور أن يجعل كل أحكامهم على تاريخ الإسلام وشريعته وقيمه خاطئة ومنحرفة لأن الإسلام يقوم على تصور جامع بين الروح والمادة والعقل .

وقد آن الأوان لدراسة الغرب دراسة جادة من خلال ما يتوفر من مصادر معرفية عنهم .و ذلك بعرض الدراسات الجادة التي صدرت من علماء مسلمين أفاضل مثل دراسات الدكتور محمد البهي و الدكتور محمد ياسين عريبي رحمهما الله ، وليست تلك الدراسات التي انتهت منذ خمسين سنة أو زيادة؛ أي العودة إلى ما قاله ,جولدزيهر ومرجليوث و شاخت وهاملتون وبرنارد لويس وغيرهم، وإن كنّا نحتاج إلى معرفة هؤلاء معرفة جيدة فإن أكثر ما يبثه القوم من أفكار هذه الأيام حول الإسلام والمسلمين لا تكاد تخرج عَمَ كتبه هؤلاء.بل ما يهمنا اليوم هو المحاولات التي أقامها بعض مفكرينا لتوضيح صورة الإسلام الصحيحة، فاضحين الاستشراق وأعوانه الذين يحاولون أن يخضعوا العالم لهيمنة الفكر الغربي عن طريق وسائل الإعلام التي يملكون وكالات أنبائها، وعن طريق الكتب والمجلات والدوريات والصحف التي يصدرونها ، وغيرها مما كان لها الأثر الكبير على أبناء امتنا الإسلامية.

تعريف الاستشراق

حتى يكون النظر في تاريخ الاستشراق وأهدافه ووسائله وأساليبه وغاياته قائماً على تصور واضح،يقتضي أن نستهل موضوع الدراسة بالتعرف على مفهوم كلمة الاستشراق من الناحيتين اللغوية والاصطلاحية. الاستشراق تعريب للكلمة الإنجليزية *orientalism* مأخوذ من الاتجاه إلى الشرق. وكلمة (الاستشراق) كما وردت في *Mu`jam al-Wasit* (1990): مشتقة من مادة شرق ، يقال شرقت الشمس ، شرقاً وشروقاً إذا طلعت، وهي تعني مشرق الشمس، وترمز إلى الحيز المكاني من الكون وهو الشرق. لو أرجعنا هـــذه الكلمة إلى أصلها لوجدناها مأخوذة من كلمة إشراق ثم أضيف إليها ثلاثة حروف هي الألف والسين والتاء، والتي تعني طلب الشرق؛ أي طلب علوم الشرق وآدابه وأديانه بصورة شاملة، فأصبح معنى الاستشراق البحث عن علوم الإسلام في بلاد المسلمين عقيدة وشريعة وتاريخاً ومجتمعاً وتراثاً.

وهناك من لا يرى أن كلمة استشراق ترتبط فقط بالمشرق الجغرافي وإنما تعني أن الشرق- بمعنى الشروق والضياء والنور و الهداية – هو مشرق الشمس ولهذا دلالة معنوية ، بعكس الغروب الذي يعنى الأفول والانتهاء، وقد رجع السيد محمد الشاهد إلى المعاجم اللغوية الأوروبية (الألمانية والفرنسية والإنجليزية) ليبحث في كلمة شرق *orient* فوجد أنه يشار إلى منطقة الشرق المقصودة بالدراسات الشرقية بكلمة "تتميز بطابع معنوي وهو Morgenland وتعني بلاد الصباح، ومعروف أن الصباح تشرق فيه الشمس، وتدل هذه الكلمة على تحول من المدلول الجغرافي الفلكي إلى التركيز على معنى الصباح الذي يتضمن معنى النور واليقظة، وفي مقابل ذلك نستخدم في اللغة كلمة Abendland وتعني بلاد المساء لتدل على الظلام والراحة" (al-Shahid ١٩٩٤). ومنهم من يقول: ليس القصد منه الشرق المكاني الجغرافي، وإنما هو الشرق المقترن بالشروق والنور والهداية، والإشراق من الشرق حيث نزلت الديانات الثلاثة اليهودية والنصرانية والإسلام.

تعريف الاستشراق في الاصطلاح

إن مصطلح الاستشراق وما يتصل به من الكلمات المشابهة نحو مستشرق وغيرها، يعد من التسميات الحديثة ، وإن كان مدلولها غير حديث ، ويقرر إسحاق موسى الحسيني أن: لفظة استشراق ومشتقاتها ، مولده استعملها المحدثون من ترجمة كلمة Orientalism ثم استعملوا من الاسم فعلا فقالوا استشرق ، وليس في اللغات الأجنبية فعل مرادف للفعل العربي ، والمدققين يؤثرون استعمال :علماء المشرقيات، بدلا من مستشرقين، ويؤثرون استعمال:عرباني لدارسي اللغة العربية،مقابلة للفظة Arabist ولكن لفظة استشرق ولفظة مستشرق هي الأكثر شيوعا (Samallovic ١٩٩٨) ومن الجدير ذكره أن أول استعمال لكلمة مستشرق في اللغات الأوربية يعود إلى عام ١٦٣٠م عندما أطلق على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية. وقد ظهرت كلمة مستشرق أول ما ظهرت في اللغة الإنكليزية نحو عام ١٧٧٩، في حين لم تدخل كلمة الاستشراق معجم الأكاديمية الفرنسية إلا عام ١٨٣٨ (Samallovic ١٩٩٨).

وعلى الرغم من التحفظات الكثيرة التي يواجهها هذان المصطلحان المستشرق و الاستشراق ، فإنهما شائعان شيوعاً كبيراً عززه ظهور طائفة من الكتب في الاستشراق والمستشرقين أبرزها كتاب إدوارد سعيد الاستشراق عام

١٩٧٨م، والحقيقة أن هذه التحفظات لا تقتصر على استخدام المصطلحين بل تشمل دلالتهما أيضاً، وعلى حين يتوسع بعضهم في هذه الدلالة يضيقها بعضهم الآخر ويقصرها على حقل صغير من حقول المعاني التي يمكن أن تشتمل عليها هذه الدلالة.

ولعل كلمة مستشرق قد ظهرت قبل مصطلح استشراق ،ومع أن مصطلح الاستشراق ظهر في الغرب منذ قرنين من الزمان على تفاوت بسيط بالنسبة للمعاجم الأوروبية المختلفة، لكن الأمر المتيقن أن البحث في لغات الشرق وأديانه وبخاصة الإسلام قد ظهر قبل ذلك بكثير، فهذا آربري في بحث له في هذا الموضوع يقول "والمدلول الأصلي لاصطلاح مستشرق، كان في سنة ١٦٣٨ لأحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية" وفي سنة ١٦٩١ وصف آنتوني وود صمويل كلارك بأنه استشراقي ويعنى ذلك أنه عرف بعض اللغات الشرقية "

ويمكن أن نبدأ بتعريفات المستشرقين أنفسهم لهذا المصطلح فهم أصحابه، ومن هؤلاء الغربيين الذين تناولوا ظهور الاستشراق وتعريفه، المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون الذي أشار إلى أن مصطلح الاستشراق إنما ظهر للحاجة إلى: "إيجاد فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسة الشرق"(Schact 1978) ويضيف مكسيم بأن الحاجة كانت ماسة لوجود متخصص للقيام على إنشاء المجلات والجمعيات والأقسام العلمية. أما رودي بارت يرى أن الاستشراق هو " علم يختص بفقه اللغة خاصة، وأقرب شيء إليه إذن أن نفكر في الاسم الذي أطلق عليه كلمة استشراق مشتقة من كلمة 'شرق' وكلمة شرق تعني مشرق الشمس ، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي"(Samallovic 1998).

أما المستشرق الإنجليزي آربري يعتمد تعريف قاموس أكسفورد الذي يعرف المستشرق بأنه "من تبحّر في لغات الشرق وآدابه". ويعرف جويدي علم الشرق بأنه : " علم من علوم الروح يتعمق في درس أحوال الشعوب الشرقية ولغاتها وتاريخها وحضارتها " (Samallovic 1998).

ولو انتقلنا إلى العرب والمسلمين الذين تناولوا هذا المصطلح نجد أن لإدوارد سعيد عدة تعريفات للأستشراق منها قوله : " كل من يقوم بدراسة الشرق أو الكتابة عنه أو بحثه، وسواء كان ذلك المرء مختصاً بعلم الإنسان الأنثربولوجيا ، أو بعلم الاجتماع، أو مؤرخاً أو فقيه لغة ،فيلولجيا في جوانبه المحدودة والعامة على حد سواء هو مستشرق، وما يقوم به هو أو هي بفعله هو استشرق "(Said 1979). ومنها قوله أنه : " أسلوب في التفكير مبني على تميّز متعلق بوجود المعرفة بين "الشرق" معظم الوقت وبين الغرب". ويقول في موضع آخر أنّ الاستشراق: "نوع من الإسقاط الغربي على الشرق وإرادة حكم الغرب للشرق.

أما أحمد عبد الحميد غراب (١٤١١هـ) فقد قدّم مجموعة من التعريفات للأستشراق استناداً إلى العديد من المراجع في هذا المجال، ثم اختار من بينها تعريف واحد هو:" أنّ الاستشراق دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون كافرون –من أهل الكتاب بوجه خاص –للإسلام والمسلمين، من شتى الجوانب: عقيدة ،وشريعة ، وثقافة ، وحضارة ، وتاريخاً، ونظماً، وثروات وإمكانات ...بهدف تشويه الإسلام ومحاولة تشكيك المسلمين فيه ، وتضليلهم عنه ، وفرض التبعية للغرب عليهم ، ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعي العلمية والموضوعية ، وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي". من هنا يأتي تعريف الدكتور محمد البهي للأستشراق بأنه: "

بحوث ودراسات في قضايا التراث الإسلامي ،في العقيدة ..وفي الفقه .. وفي الشريعة.. وفي التاريخ السياسي .. وفي الأمانة والخلافة .. وفي الفلسفة .. وفي الاجتماع ..الخ. قام بها قساوسة ولاهوتيون بتكليف من الكنيسة أو من وزارات الخارجية للدول الغربية أو الشرقية على السواء ." (al-Bahy 1981).

مشيراً إلى إن الاستشراق في بدايته عبارة دراسات وأبحاث قام بها القساوسة ولاهوتيون تدعمهم الكنيسة أو الدولة، لتعلم اللغة العربية ودراسة الإسلام ، ولكن سرعان ما امتدت هذه الدراسات إلى الجامعات لتأخذ شكل مغاير للبحث العلمي بالطعن في الإسلام والدين الإسلامي من قبل أشخاص تتلمذوا على أيدي المستشرقين ، تدفعهم أهواء الاستعمار للسيطرة على العالم .قائلاً: "دخل الاستشراق الآن من ليسوا قساوسة أو لاهوتيين ، وإنما متخرجون في الجامعات ومسيرون في بحوثهم طبقاً لمنهج الاستشراق العام"(al-Bahy 1981). مفرقاً بين مفهومي الاستشراق والتبشير حتى يبعد الالتباس على فهم القارئ قائلاً : " أن الفرق بينهما – ويقصد الاستشراق والتبشير–هو أن الاستشراق أخذ صورة البحث ،وأدعى لبحثه ،الطابع العلمي الأكاديمي. بينما بقيت دعوة التبشير في حدود مظاهر العقلية العامة وهي العقلية الشعبية" (al-Bahy ١٩٨٥) .بمعنى إن الاستشراق استخدم الكتاب ،والمقال في المجلة العلمية، وكرسي التدريس في الجامعة، والمناقشة في المؤتمرات العلمية. أما التبشير فقد سلك طريق التعليم المدرسي في دور الحضانة ورياض الأطفال والمراحل الابتدائية من التعليم كما سلك العمل الخير الظاهري في المستشفيات ودور الحضانة ودور اليتامى وملاجئ المسنين،في سبيل الوصول إلى غايته.

وفي هذا المقام نجد أن الدكتور محمد ياسين عريبي لا يخالف الدكتور محمد البهي في تعريفه للأستشراق، بل انه يشير إلى قطبين سار عليهما الاستشراق الغربي في النيل من الأمة الإسلامية ، قائلاً: " الاستشراق مغنطيس الحضارة الغربية الذي يتحدد قطبُه الموجب في تحليل الفلسفة الإسلامية المترجمة إلى اللغة العبرية واللاتينية والتي أ قام فلاسفة الغرب على لبناتها وهيكلها نظرياتهم العلمية ومناهجهم التجريبية ومذاهبهم الفلسفية، وخاصة في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين .أما القطب السالب فيتمثل في تحليل آيات القرآن المترجم للغة اللاتينية والذي أدى تحليل معانيه إلى تحالف الثالوث السالب ونعني به ظاهرة التبشير والاستعمار والصهيونية "(Uraiby 1990). محدداً بهذا وظيفة الاستشراق في قطبين : قطب موجب يتمثل في تحليل الفلسفة الإسلامية المترجمة من العربية إلى اللاتينية والعبرية والقشتالية إلى اللغة الأوروبية ، والاستفادة من نظرياتها العلمية، ومناهجها التجريبية ،دون الاعتراف بمساهمة المسلمون في بناء هذا الفكر.حيث عمد المستشرقون إلى وصف الفكر الإسلامي على انه مجرد وسيلة لفهم التراث اليوناني ،وبالتالي التقليل من دو المسلمين في الجانب الإبداعي .وقطب سالب يتمثل في ترجمة آيات القرآن الكريم إلى اللغات الأوروبية ،الذي كان الدكتور محمد ياسين يأمل إن يقدم فيه بحث شامل لترجمة معاني القرآن بالقدر الذي يماس تغريب العقل التاريخي لكن حال القدر دون ذلك .مؤكد بهذا رأي الدكتور محمد البهي بان الاستشراق هو دراسة العالم الإسلامي وعلومه وحضارته لا من اجل الفائدة بل من اجل النيل من الدين الإسلامي. أما المستشار على الجريشه يعرض تعريف المستشرق ميكائيل أنجلو جويدى القائل : "ليس صاحب علم الشرق أو المستشرق الجدير بهذا اللقب بالذي يقتصر على بعض اللغات المجهولة أو يستطيع إن يصف عادات بعض الشعوب، بل إنه من جمع بين الانقطاع إلى درس بعض اتحاد الشرق وبين الوقوف على القوة الروحية والأدبية الكبيرة التي أثرت على تكوين الثقافة الإنسانية، وهو من تعاطي درس

الحضارات القديمة " (Jarishah 2007) .مؤيداً بهذا أقوال المفكريَّن على أن الاستشراق يعني: "تعلم علوم الشرق... وتلك كانت بدايته. واغلب الظن انه كانت بعد أن فتح الغرب عينيه مع الفتح الإسلامي أو على الفتح الإسلامي، وبعد ما انتقلت حضارة المسلمين وعلومهم إلى الغرب" 2007) (Jarishah. ويأتي محمود حمدي زقزوق ليصف المستشرق بأنه : " هو كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله أقصاه ووسطه وأدناه في لغته وآدابه وحضاراته وأديانه")متأثر بتعريف أساتذته للأستشراق، فيعرف الاستشراق بأنه: " الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته و حضارته بوجه عام" (Zaqzuq ٢٠٠٨).

بناء عليه يمكن القول بأن الاستشراق في الاصطلاح علم أو اتجاه فكري يُعنى بدراسة الإسلام والمسلمين ويشمل ذلك كل ما يصدر عن الغربيين من دراسات تتناول قضايا الإسلام والمسلمين في العقيدة والسنة والشريعة والتاريخ، وغيرها من مجالات الدراسات الإسلامية الأخرى. ويُلحق بالاستشراق ما تبثُّه وسائل الإعلام الغربية من كتابات وبرامج تتناول الإسلام والمسلمين وقضاياهم. فالاستشراق إذن اتجاه فكريّ يُعنى بدراسة حضارة الأمم الشرقية بصفة عامة وحضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة ، وقد كان مقتصراً في بداية ظهوره على دراسة الإسلام واللغة العربية ، ثم اتسع ليشمل دراسة الشرق كُله ، بلغاته وتقاليده وآدابه ، فالمستشرقون هم علماء الغرب الذين اعتنوا بدراسة الإسلام واللغة العربية ، ولغات الشرق وأديانه وآدابه.

الهدف الديني للاستشراق من دراسة الفكر الإسلامي

الاستشراق حركة ذات تاريخ طويل قامت من أجل أهداف كثيرة متعددة ، اختلفت وتباينت حسب المراحل التاريخية، وربما يغلب عامل أو أكثر في مرحلة معينة على غيره من العوامل ؛ولكن الأمر الذي يجتمع عليه جمهور الباحثين في موضوع الاستشراق؛ ومنهم المفكريَّن محمد البهي ومحمد ياسين عريبي، أن الاستشراق قام لتحقيق هدف معين ،سواءً أن كان دينياً أو سياسياً أو اقتصادياً أو عسكرياً أو علمياً. ورغم اختلاف هذه الأهداف ؛ألا إنها تسعى إلى الإفادة من بعضها في تحقيق غاياتها ، فالهدف الديني ، يتداخل مع الأهداف الأخرى كالهدف السياسي أو الهدف العلمي ؛وبالتالي تلتقي كل الأهداف في بوتقة واحدة هي خدمة الاستعمار والصهيونية. وهو ما نوه إلية المفكريَّن في جل مؤلفاتهم وأبحاثهم مؤكدان على أن الهدف الأساسي والمباشر للاستشراق هو هدفاً ديني في أساسه،استعمارياً في مضمونه ،علمياً في ظاهره؛وكلها جاءت من اجل خدمة النصرانية في البلاد الإسلامية.

فقد بينوا من خلال دراساتهما على أن الغرب عمل على تعلم اللغات الشرقية من أجل التعرف على مصادر النصرانية من اللغة العبرية ، وقد ساقتهم دراسة اللغة العبرية إلى تعلم اللغة العربية ، وتعلم اللغة العربية قادهم إلى الاستشراق، فاللغة العربية هي لغة دين وثقافة وفكر جاء ليحل محل الدين النصراني والثقافة والفكر المنبثقين عن الدين النصراني ، فأوجد هذا نزعة التعصب التي قادت إلى استخدام اللغة العربية والعبرية معاً. ذلك لان اللغة العربية ظلت لفترة طويلة ولازالت لغة علم وثقافة وفلسفة ،والسبيل الوحيد لنهوض وازدهار الحضارات، وبدأت أقوم طريق لفهم الكتب السماوية وفلسفتها فتسابق أصحاب الديانات الأخرى إلى تعلمها وتعليمها لمواطنيهم وذويهم من مبشرين وغيرهم ،وهو ما يؤكده محمد ياسين عريبي قوله: " لما أشاد بأهمية اللغة العربية من حيث أنها لغة العلم في ذلك الوقت

كما هو الحال للغة الانجليزية في عصرنا هذا" (Uraiby 1991`). نستنتج من هذا أن العامل الديني كان عاملاً أساسيا لتعلم اللغة العربية وبالتالي كان دافعاً قوياً وراء انتشار الاستشراق في العالم الإسلامي، إذ أنشئت في الغرب المعاهد والمدارس لتعلم لغات الشرق وأديانه ، "ليرجع فضل دراسة اللغات الشرق في الحقيقة إلى المرسلين المبشرين الموفدين إلى البلاد الشرقية من لدن الباباوات، فهؤلاء هم الذين حملوا معهم عند رجوعهم إلى بلادهم تلك اللغات، وقد كانت المجادلة في العلوم والآداب ضمن اختصاص دائرة الاكليروس المسيحي أي الرهبان ، وهم الذين قبضوا على ناصيتها واختصوا بها ومنعوا الجمهور من تداولها" (Samallovic 1998).

وخير دليل على أن دراسة القرآن الكريم واللغة العربية هي بداية انطلاق وانفتاح الغرب على العالم الإسلامي ما ذكره محمد ياسين عريبي قائلا: "يؤكد يوحنا فيك على أن دراسة القرآن واللغة العربية قد جاءت كمنطلق للاستشراق بسبب فكرة التبشير حيث أن انتصار الصليبيين بقوة السلاح لا يؤدي إلى تنصر المسلمين بل اعتقدت الكنيسة في أن قوة الكلمة هي الأساس لتحقيق التبشير في ضوء العقل ومن هنا جاءت فكرة السيطرة على نبع العقيدة الإسلامية ألا وهو القرآن" (Uraiby 1991`).

فقد كشف هذا الاهتمام باللغة العربية من قبل المستشرقين عن أهداف دينية أولاً ، ثم استخدم لخدمة الحركة الاستعمارية العالمية ،وفي مرحلته الثالثة تحول إلى أهداف علمية ؛ فلقد أصبحت لغة العلم والفلسفة ولابد للرهبان من معرفتاها للدفاع عن العقيدة ومنع انتشار الإسلام الذي أصبح يزحف على المعاقل المسيحية ويطرق أبوابها؛ من هنا فكرت البابوية في روما في مواجهة هذا الزحف بالتبشير المضاد بالمسيحية في البلاد الإسلامية نفسها فالهدف الديني من وجهة نظر المفكرين هو الأساس والدافع الوحيد والرئيسي لتعلم اللغات الشرقية عامة واللغة الإسلامية خاصة؛ حيث ظلت اللغة العربية بيت القصيد في نشاط الرهبان لأسباب الدفاع والهجوم و الاحتلال والاستغلال والحرب والسلام والتبشير والاستعمار. فقد تركت الحروب الصليبية في نفوس الأوربيين ما تركت من أثار عميقة،أدت إلى الحقد الغربي على هذا الدين الذي ملئ بنوره الكون،فعملوا جاهدين على فهم أسباب سرعة انتشار هذا الدين الجديد.فظهرت حركة الإصلاح الديني المسيحي وشعر المسيحيون :البرتستانت والكاثوليك بحاجة ملحة لإعادة النظر في شرح كتبهم الدينية وهذا لا يتأتى إلا بتعلم لغة الشرق وعلى رأسها اللغة العربية التي سادت في تلك الفترة ،وبالتالي كرسوا كل جهودهم ووسائلهم من جل شرح كتبهم و تفهمها " على أساس التطورات الجديدة التي تمخضت عنها حركة الإصلاح ومن هنا اتجهوا إلى الدراسات العبرانية وهذه أدت بهم إلى الدراسات العربية الإسلامية لان هذه الأخيرة كانت ضرورة لفهم الأولى وخاصة ما كان منها متعلقاً بالجانب اللغوي اتفق المفكرَّين على أن المستشرقين بدلوا كل جهودهم من أجل إضعاف الإسلام والتشكيك في قيمه وزرع الفتنة بين شعوبه ؛ حيث سُخر الكثير منهم لدراسة اللغة العربية والإطلاع الواسع على علومها ومعارفها ؛لاتخاذ هذه الدراسة وسيلة للقاء كثير من المفتريات والأباطيل في محيط الإسلام للتهوين من شأن الدعوة الإسلامية والتقليل من أثرها في الحياة. ولبلوغ هذه الأهداف عدوا العدة لمحاربة الإسلام في عقر داره متسللة إلى العصب الرئيسي للأمة الإسلامية–القرآن الكريم– للطعن فيه بعد أن حاولوا ترجمته إلى لغاتهم .من هنا كان الهدف الديني في مقدمة أهداف الاستشراق وأهمها .

يخطئ من يقول إن الاستشراق حركة علمية،لا هدف لها إلا دراسة التراث الشرقي في معتقداته وآدابه؛لأن الاستشراق في الحقيقة والواقع خادم للاستعمار وأهدافه، وهو يتخذ من دراسة التراث الشرقي وسيلة لمحاربة الإسلام، والتشكيك في مصادره ليصرف المسلمين عن دينهم، فلا تتحقق لهم قوة ولا عزة، بل يظلون تابعين للغرب، مقلّدين كل ما في بلاده من ألوان الفساد والانحلال ، وقد اعترف يوهان فوك بالدافع التبشيري في صراحة فقال : " إن الاستشراق لم يكن عملاً علمياً محضاً، بل إن المراد منه هو الرد على الإسلام والتبشير بالنصرانية بين المسلمين بتراجم عربية للإنجيل (Al-Jabarty 1995). فالاستشراق ليست حركة علمية وهو ما يؤكد محمد ياسين عريبي بقوله: عندما شعرت الكنيسة بخطورة الإسلام على استمرار وجودها قامت تعد العدة لمناهضته ، وقد اتضحت للكنيسة الرومانية أن محاربة الإسلام لا تتم إلا بعد الإلمام بحقيقة هذا الدين ، فلجأت إلى ترجمة القرآن للغة اللاتينية ، وقد تمت هذه الترجمة على يد احد الانكليز الدارسين للفلك العربي ، ألا وهو روبرت كتننزس بالتعاون مع زميله هيرمان دالمت مستعينان بأحد العرب في فهم النص ودقة الترجمة،وقد تمت هذه الترجمة في سنة ١١٤٣م .. وعلى الرغم ما بهذه الترجمة من أخطأ شنيعة لا تغتفر، فقد اتخذت أساساً اعتمد عليه في ترجمة القرآن للغات الأوروبية الأخرى حيث طبعت هذه الترجمة سنة ١٥٤٣م بمدينة بازل أي بعد ٤٠٠سنة من ظهورها باللغة اللاتينية وفي سن ١٥٤٧ ترجم النص اللاتيني للقرآن إلى اللغة الايطالية ، وقد نقل شفيقر الترجمة الايطالية إلى اللغة الألمانية سنة ١٦١٦م، وترجمة هذه المعاني القرآنية من اللغة الألمانية إلى اللغة الهولندية سنة ١٦٤١م ، وهكذا استمرت ترجمة معاني القرآن إلى يومنا هذا بطرق مباشرة أو غير مباشرة. بناء عليه يؤكد المفكرَّين على أن عمل الاستشراق يكمن في إيجاد حصيلة واسعة من مفاهيم الإسلام بدأها بترجمة القرآن والحديث النبوي وبعض الكتب المعروفة ؛ وغايته من ذلك معرفة الإسلام عن قرب لمحاربته وتشويهه وإبعاد النصارى عنه، وقد اتخذ النصارى المعرفة بالإسلام وسيلة لحملات التنصير التي انطلقت إلى البلاد الإسلامية،وكان هدفها الأول تنفير النصارى من الإسلام، ثم إحكام الرد على ما فيه من قضايا معارضة للمسيحية من ناحية أو معارضة للنفوذ الأجنبي من ناحية أخرى.فأنطلق الغرب شعوباً ودول تشجع طلاب العلم والباحثين والمبشرين على حد سواء، لدراسة الشرق الإسلامي وحضارته وهو ما أشار إليه محمد البهي بقوله:. " لقد كان المبشرون يعملون بطرق مختلفة كالتعليم مثلاً على تهيئة شخصيات شرقية لا تقاوم التبسيط الأجنبي" (al-Bahy n.d.). وهذا ما أكده محمد فتح الله الزيادي بقوله: " بدأ المستعمرون في تشجيع الدراسات الاستشراقية نظراً للحاجة الملحة إلى فهم أوضاع المسلمين ؛ وحتى يتسنى لهم العمل على إضعاف روح المقاومة لديهم ، وبث الفرقة والوهن في صفوفهم وقد اتخذوا لذلك وسائل عديد أهمها :التشكيك بتراث المسلمين وحضارتهم وقيمهم وعاداتهم. والتبشير بحضارة الغرب المادية والانفتاح عليها"(al-Ziady 1983).

فالمفكران أجمعا على أن الشعور المعادي للإسلام من قبل الغرب جعل رجال الاستشراق تهب لتعلم اللغة العربية لاستلاب حضارة الإسلام حتى يسهل عليهم مواجهتها ،والتبشير بحضارة الغرب المادية ؛لكن السر في فشلهم في حمل المسلمين على التخلي عن دينهم هو ، أنهم يعملون في اتجاه مضاد لطبيعة الأشياء؛ لأن الإسلام دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها؛ فلا يمكن للفطرة أن تنفصل عنه، مهما بذل أعداء الإسلام من الجهد والمال.والجدير بالذكر هو أن ما يزيد من الحقد الغربي على الإسلام ،شعورهم بالخطر والخوف من قوته ووحدته، مما دفعهم إلى البحث عن خطط بديلة لمحاربة الإسلام وتفتيت وحدته من خلال تشويه صورته في العالم. فلم يعد خافياً ما يبذله المستشرقون من جهود في

محاربة الإسلام بالتشكيك في مصادره وتلفيق الأباطيل والإلقاء بها في ساحة الشريعة الغرّاء، ومحاولة إغراق المسلمين بالتيارات الفكرية المضلّلة، ومحاربة اللغة العربية التي نزل بها القرآن، وهو ما نستنتجه من قول محمد ياسين عريبي: " أن الاستشراق خير أداة لاستلاب حضارة الإسلام ، ومجابهة عقيدته ؛ وبالرغم من تشعب الاستشراق وتطوره فإن الدوافع الدينية هي التي مازال تمثل الخيط الأحمر لنسيجه"(Uraiby 1989)

بناء عليه يمكن القول بأن العامل الديني كان عاملاً قوياً في قيام الاستشراق ونشاطه .فهذا إدوارد سعيد يؤكد على أهمية الدافع الديني في ظهور حركة الاستشراق بقوله:" ومن هنا يستطيع كل باحث عن تاريخ حركة الاستشراق إن يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الهدف الديني كان وراء نشأة الاستشراق،وقد صاحب الاستشراق طوال مراحل تاريخيه و لم يستطيع أن يتخلص منه بصورة نهائية (Said 1979). نستخلص مما تقدم أن أساليب وغاية المستشرقين من دراسة العالم الإسلامي عقيدة وشريعة ؛ من خلال وجهة نظر المفكرين تكمن في معرفة الإسلام لمحاربته وتشويهه وإبعاد النصارى عنه، وقد اتخذ النصارى المعرفة بالإسلام وسيلة لحملات التنصير التي انطلقت إلى البلاد الإسلامية،وكان هدفها الأول تنفير النصارى من الإسلام،واعتباره خطرا على الغرب وعلى وحدته الروحية ،لما لهذا الدين من القدرة على الانفتاح على العالم واستيعابه،وهو ما أكده مكسيم ردنسون بقوله: "لقد كان المسلمون خطرا على الغرب قبل أن يصبحوا مشكلته كما كانوا في نفس الوقت عامل اهتزاز شديد في بيان الوحدة الروحية للغرب ونموذجا حضاريا يمتاز بتنافسه وبحركته الإبداعية المتسارعة وقدرته الهائلة على الانفتاح والاستيعاب ، إذ أنه وفي مواجهة تقدم هذا النموذج عبر مثقفي الغرب عن شعور عام بالاندهاش أمام الإسلام وبدا لهم ذلك وكأنه خطر على المسيحية. (الشامي.د-ت). فهذه المشاعر العِدَائية نحو الإسلام و المسلمين والمتمثلة في أن الإسلام خطرا على الغرب قد أدت كما يرى مكسيم ردنسون : " إلى نتيجتين هامتين. أولاهما : السعي نحو وحدة أيدلوجية أوربية متكاملة في مواجهة فكر الإسلام وحضارته . وأخراهما : إن الكنيسة الأوربية قد عملت من أجل تثبيت الأيمان المسيحي ،على تشويه المنتجات الحضارية للإسلام وما يصل منها إلى الغربيي"(al-Nashar n.d.).

والجدير بالملاحظة هو انه عندما قرر الاستعمار أن يستخدم التبشير عن طريق الغزو الفكري بديلاً الاحتلال العسكري في زعزعة اطمئنان المسلم؛ بسطت حمايته على مبشريه في بلاد الإسلامية فلقد :" كانت الدول الأجنبية تبسط الحماية على مبشريها في بلاد الشرق لأنها تعدهم حماية لتجارتها وآرائها وثقافتها إلى تلك البلاد. (al-Bahy n.d.). لدا فإن كنّا أخذنا بالقول أن الاستشراق بدأ بتشجيع من الكنيسة ورجال الدين فإن الاهتمام الديني يعد أول أهداف الاستشراق وأهمها على الإطلاق.لدى يرى البهي انه عندما رأى النصارى وبخاصة رجال الدين منهم أن الإسلام اكتسح المناطق التي كانت للنصرانية وأقبل كثير من النصارى على الدين الإسلامي ليس لسماحته فحسب؛ ولكن لأنه بعيد عن التعقيدات وطلاسم العقيدة النصرانية؛ ولأنه نظـــام كامل للحياة . " فقد واجهت الكنيسة هذا التحدي سراً وعلناً على كل المستويات حتى صيرته من الدفاع إلى الهجوم " (Uraiby 1991). فقد توجه رجال الدين إلى محاربة هذا الدين بكل الوسائل والطرق؛ ولكن عندما علمت انه الأقوى والأعلى قامت بتشجيع طلاب العلم من مبشرين وغيرهم على ترجمة أصول هذا الدين لفهمه وحتى يسهل القضاء عليه. وقد تركزت أهداف الاستشراق مع تنوعها -حسب وجهة

نظر المفكرين– : في خلق التخاذل الروحي وإيجاد الشعور بالنقص في نفوس المسلمين والشرقيين عامة ، وحملهم من هذه الطريق على الرضا والخضوع للتوجيهات الغربية . (Bahy n.d.).

وبعد هذا العرض نرى أن موقف الكنيسة المسيحية في القرون الوسطى من الإسلام حددته محطتان رئيسيتان هما : ضرورة التعلم منه كونه الأقوى والأعلم ، والتصارع معه كعقيدة غريبة ومعادية . فالتصارع معه كعقيدة ظن منهم على أنه دين سيقضي على سلطة الكنيسة التي كانت مهيمنة على كافة مناحي الحياة العلمية والدينية هو ما دفعهم إلى رفع راية العداء للإسلام؛ فكان من أهم الخطوات التي اتخذها الكنيسة في أوربا لمواجهة مشاعر الاندهاش والخوف من الإعجاب بالإسلام والدين الإسلامي من قبل أتباعها؛ إن عملت على تشويه صورة الإسلام. ومما لا يخفى أن الدافع الديني قد التحم بدوافع أخرى قومية واقتصادية واستعمارية، في ضوء هذه الدوافع استطاعت أوروبا أن تتخذ من التراث المكتوب كعقل تاريخي في أقصى درجات تطوره، استطاعت أن تأخذ من هذا العقل نبراساً تشع به نور الحضارة في ربوع الغرب ، و إذا كانت الفلسفة هي الأساس فإن أهم عمل قام به التبشير و الاستشراق هو ترجمة الكتب الفلسفية من أجل الدفاع عن العقيدة المسيحية ن ولكن هذا الدافع سرعان ما تحول إلى هجوم من خلال تجسد الأفكار المكتوبة وانعكاساتها ، حيث أدت عوامل الصراع إلى مركزية غربية سلبت كل ما لغيرها ونسبته لنفسها(`Uraiby 1991) .

وأخيرًا نرى أن هذه الدوافع الدينية قد حملت في طياتها أهدافاً عديد وغايات مختلفة وعلى الرغم من ذلك فقد ظل جانبها الرئيسي عبر العصور واحداً ألا وهو مواجهة الإسلام و الهجوم عليه ، ويبدو أن التطورات الأخيرة التي قفزت بالعالم كله إلى أفاق جديدة أوسع مدى وأرحب أفقاً من ذي قبل لم تتغير كثيراً من اتجاهات العقلية المسيحية وسياسة روما البابوية مما يدل على أن الرهبنة المسيحية لم تتقدم كثيراً إلى الأمام وان تقدم الزمن وتغايرت الأيام .

References

al-Bahy, Muhammad. n.d. Al-mubashirun wa al-mustashriqun fi mawqifihim min al-Islam. *Majallah al-Azhar*. al-Qahirah : Matba`ah al-Azhar.

al-Bahy, Muhammad. 1981. *Al-Islam wa Mawajahatu al-Mathahib al-Hadamah*. al-Qahirah : Maktabah Wahbah.

al-Bahy, Muhammad. 1981. *Al-fikr al- Islamiyy fi Tatawurih*. al-Qahirah : Maktabah Wahbah.

al-Bahy, Muhammad. 1982. *Al-Islam fi al-Waqi` al- Idology al-Mu`asir*. al-Qahirah : Maktabah Wahbah.

al-Bahy, Muhammad. 1985. *Al-Fikr al-Islamiyy al-Hadith wa Silatuh bi al-Isti`mar al-Garbiyy*. al-Qahirah : Maktabah Wahbah.

al-Jabarty, Abd al-`Al. 1995. *Al-Istishraq wajh Jaded li al–Istimar al-Fikriyy*. al-Qahirah : Maktabah Wahbah.

Jarishah, Ali. 2007. *Al- Ittijahat al-Fikriyyah al-Mu`asirah*. al-Mansurah : Dar al-Wafa'.

*Al-mu`jam al-wasit*. 1990. Al-Qahirah : Majma` al-Lughah al-`Arabiyyah.

al-Nashar, Ali Samiy. n.d. *al-Harkah al-Salaybiyyah wa Atharuha fi al-Istishraq al-Gharbiyy*. Maqal Manshur fi Majallah al-Fikr al-Arabiy.

Said, Edward. 1979. *al-Istishraq*. New York : Kutub Atiqah.

Samallovic, Ahmad. 1998. *Falsafah al-Istishraq wa Atharuha fi al-Adab al-`Arabi al-Mu`asir.* Al-Qahirah : Manshurat Dar al-Fikr al-`Araby.

Schact, J. 1978. *Turath al-Islam.* Hussein Mu'nis & Ihsan Sadiq al-`Amd (Trsl.). Kuwait : al-majlis al-Watany li al-Thaqafah wa al-Funun wa al-Adab.

al-Shahid, al- Sayyid Muhmmad. 1994. al- Istishraq wa Manhajiyatuh al-Naqd `inda al-Muslimin al-Mu`asirin. *Majallah al-Ijtihad*. Vol. 22 (Year 6).

`Uraiby, Muhammad Yaasin. 1989. *Al-Dawafi` al-Diniyyah li al-Istishraq Nadwatu al-Din wa al-Tadafi al-Hadhariy.* Tarablus : Manshurat Risalat al-Jihad.

`Uraiby, Muhammad Yaasin. 1990. *Tamulat fi bina'al-Mujtama` al-Islami.* Tarablus : Manshurat Jam`iyat al-Da`wah al-Islamiah al-`Alamiah.

`Uraiby, Muhammad Yaasin. 1991. *al-Istishraq wa Taghrib al-`Aql al-Tarikhiyy al-`Aarabiyy.* al-Ribat : al-Majlis al-Qawmiyy li-al-Thaqafah al-`Arabiyyah.

`Uraiby, Muhammad Yaasin. 1991. *Mawaqif wa Maqasid fi al-Fikr al-Islami al-Muqarin*. Tarablus : al-Dar al-`Arabiyyah li al-Kitab.

Zaqzuq, Mahmud Hamdiy. 2008. *al-Istishraq wa al Khalfiyah al-Fikriyyah li al-Sira` al-Hadhary.* al-Qahirah : Matbaah al-Shuruq al-Dawliyyah.

al-Ziyady, Muhammad Fath Allah. 1983. *Zahirah Intishar al-Islam*. Tarablus : al-Mansha'ah al-`Ammah li al-Nasyr wa al-Tawzi`.